ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

The Logic of Civilization in the Historical Heritage of the Scholar Mustafa Jawad

Mohammed Kareem Al-Jumaily

Department of History-College of Education –Al Iraqia University

* *Corresponding author: E-mail* :
dr.m.aljumaily@gmail.com
07715640009

***Keywords*:**
Mostafa
Jawad
Plans
Civilization
Markers

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	1 Sept 2024
Received in revised form	25 Nov 2024
Accepted	2 Dec 2024
Final Proofreading	2 Mar 2025
Available online	3 Mar 2025

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

Mustafa Jawad, a scholar, was an accomplished calligrapher, one of many artistic and creative pursuits within Islamic civilization. Writing, researching, and studying this art form for the purpose of laying fresh scientific groundwork for it occupied a large portion of his scientific and practical life. Among academics of his day and his contemporaries, he stood out for his distinctive civilizational logic in this field.

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.32.3.7.2025.07

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for

منطق الحضارة في التراث التاريخي والخططي عند العلامة الدكتور مصطفى جواد

محمد كريم الجميلي / قسم التاريخ/كلية التربية/ الجامعة العراقية

الخلاصة:

للحضارة الإسلامية اتجاهات عديدة في الفنون والابداع، ومنها فن الخطط الذي أبدع فيه وأجاد العلّامة مصطفى جواد، فقضى شوطًا كبيرًا من حياته العلمية والعملية يكتب ويبحث ويستقصي في هذا الفن محاولًا تثبيت أسس علمية جديدة لهذا العلم، وكان له في هذا العلم منطق حضاري خاص به تميز به بين علماء عصره وأقرانه.

الكلمات المفتاحية: مصطفى، جواد، الخطط، الحضارة، الشواخص، التراث.

المقدمة

يُعدّ مصطفى جواد أحد أعمدة اللغة والأدب والتاريخ في العراق، ذلك الرجل العلّامة الذي ترك لنا إرثاً ثقافياً كبيراً ما بين مخطوط ومطبوع مما لا يقدّر بعدد أو بمادة علمية رصينة حتى بلغت شهرته الآفاق على النطاقين العربي والإقليمي وذلك بما كتبه في شتى الفنون والمعارف تجاوزت المئات في الصحف والمجلات العلمية فضلاً عن الكتب المؤلفة والبرامج الدورية في الإذاعة والتلفزيون والتي استمرّ بعضها لخمسة عشر عاماً حتى أصبح عالماً موسوعياً أرسى منهج كتابة التاريخ بطرق بحث علمية وعملية واستكشافية بما توفر له من إمكانات بسيطة آنذاك.

وكان لمؤلفاته أثر ملموس في نهضة الثقافة العراقية في كل ما كتب من علوم ومعارف ولاسيما علم الخطط الذي برع فيه، بل يعد أوحد زمانه بالعراق في هذا التخصص بعد أنْ قدّم فيه أروع دراساته وأبحاثه في هذا المضمار مستدلاً بأدلّة علمية وآثارية قطع معها علم الخطط شوطاً كبيراً في التعرّف على معالم وعظم الحضارة العربية الاسلامية في بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وثبّت من خلالها معالم الدولة ومؤسساتها ومدارسها ومساجدها وكل ما يتعلّق بها من محلات وأسواق وشوارع وسقايات وربط وتكايا كانت يوما ما محط أنظار العالم الاسلامي بما اكتسبته بغداد من مجد وشهرة.

أما تعدد مهاراته في العلوم الإنسانية فكان له أثر كبير في صقل شخصيته كأحد الكُتّاب الموسوعيين البارزين في تاريخ العراق المعاصر، فطول خبرته وكثرة انتاجه في مختلف حقول المعرفة جعلت منه أحد صناع الحضارة في العراق، وهذه الحضارة لها مفهومها الخاص في تراثه التاريخي والخططي وهذا ما ركزت عليه الدراسة.

وقد قسمت البحث على مبحثين: كان الأول بعنوان مفهوم الحضارة عند المفكرين القدامى والمعاصرين، فيما جاء المبحث الثاني بعنوان منهج ورؤية مصطفى جواد للحضارة الاسلامية، وفي نهاية البحث ذكرت بعض التوصيات المهمة مع سرد قائمة لأهم المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة البحث.

المبحث الأَول

مفهوم الحضارة عند المفكرين القدامى والمعاصرين

قبل الحديث عن المنطق الحضاري الذي تكلَّم به مصطفى جواد لا بدَّ من تسليط الضوء على مفهوم الحضارة عند الباحثين والمفكرين، ولطالما اختلفوا وتباينوا في تحديد مفهومها، فهي كما تعرفها

المعاجم العربية بأنها "الإقامة في الحضر بخلاف البداوة وهي الإقامة في البوادي (صليبا، ١٩٨٢م، ج١، ص٤٧٥).

ويُعدّ الفيلسوف ابن خلدون أَول مَنْ وضع لنا هذا المصطلح في معنى قريب من معناه المعاصر، فهي عنده طريقة عيش الجماعة وغاية للبداوة، وطور طبيعي في حياة المجتمعات ونهاية العمران بعد أن تستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه (ابن خلدون، د ت، ج١، ص١٥٤).

وقد اعتمد ابن خلدون في كتاباته التاريخية الفلسفية على التراث المعرفي الإسلامي الذي بدأه الإسلام وشكَّل تطوره فيما بعد عملية تاريخية طويلة، عمقها الواقع الاجتماعي وتقدم المعرفة العقلية. ولمّا كان لكلِّ أُمَّة حضارة تفتخر بها، كانت الحضارة الاسلامية هي موطن فخر للمسلمين وذلك لأَنها تميزت بمنهج خاص بها تفردت به عن سائر الحضارات بأصول كثيرة لعل أهمها هو اعتمادها على القرآن الكريم الذي خاطب عقول البشر وحواسهم، ويدعو الى التفكير بخلق الله في الكون والسموات والأرض وما فيها من مخلوقات لا يستطيع أن يتوقف عندها دون تفكر وتأمّل (مجموعة باحثين، ٢٠٠٤م، ص٥٣).

وبناءً على ذلك فلم يستطع المؤرخون القدامى التوصل الى صياغة نظرية محددة لدراسة التاريخ وفقًا لمنهج حضاري حتى جاء ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) واستطاع توظيف نتائج أَعمال المؤرخين وغيرهم من أَعلام الثقافة العربية الذين سبقوه في مقدمته (الملاح، ٢٠١٠م ، ص٢٥٠).

إنَّ ظروف العصر الذي عاش فيه ابن خلدون في المغرب وتجربته الشخصية القاسية في حياته العلمية والعملية حملته على إعادة قراءة التاريخ من أجل فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل (الجابري، ١٩٩٤م، ص١٨). وقد وجد وهو يقوم بهذه المراجعة أَنَّ المؤرخين بحاجة الى معايير وقواعد جديدة لاستخدامها في نقد الأَخبار وتمييز الصحيح من الزائف منها (ابن خلدون، د ت، ص٣-٦).

وقد عكف الفيلسوف ابن خلدون أربع سنوات من أجل تحقيق هذا الهدف، إذ أَلّف كتابه في التاريخ –العبر وديوان المبتدأ والخبر– ثم أَتبعه بمقدمته التي أَنجز كتابتها في الأشهر الخمسة الأخيرة من عزلته العلمية التي توصل فيها الى القواعد التي تساعد المؤرخ على فهم الحقيقة والتي أسماها بقواعد علم العمران أَو ما يسمى حاليًا بعلم الاجتماع (الملاح،٢٠١٠م، ص٢٥٠) ، حاول أن يضع في مقدمته نظرية شاملة ومتكاملة من جميع النواحي الاجتماعية والثقافية وضع فيها الأَمثلة الكثيرة لفهم طبيعة العمران البشري في كتابته للتاريخ (مجموعة باحثين، ص١٢٦).

ومهما تكن طبيعة العلم الذي توصل اليه ابن خلدون فإنَّ له الفضل في وضع أُسس ومعالم المنهج الحضاري في كتابة التاريخ قبل أَنْ تظهر الدعوة الى استخدام مثل هذا المنهج في دراسة التاريخ في أُوربا بحوالي أَربعة قرون (الملاح، ٢٠١٠م، ص٢٥١).

أَمّا المعاصرون من الباحثين والمفكرين المسلمين فتحديدهم لمفهوم الحضارة يختلف من باحث إلى آخر. فمفهوم الحضارة عند الأستاذ حسين مؤنس في مفهومها العام هي: "ثمرة كلّ جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية (حسين مؤنس، ١٩٨٢م، ص١٣).

ويرى الدكتور عبد الرحمن علي الحجي إنَّ الحضارة الاسلامية هي إحدى ثمار العقيدة الاسلامية ومن مُعطيات الاسلام، وهي ميدان واسع ورائع وندي مزدحم بالنشاط السمح النقي مُشرق بالنور مُزدان بالخير ذات سمات وخصائص مميزة.. يجب تناولها بجانبيها العلمي المتعدد والعملي المتنوع (الحجي، ١٩٧٩م، ص٧).

أمّا الأُستاذ هاشم يحيى الملاح فيرى أنَّ الحضارة في جوهرها مُعطيات إنسانية تتصل بقدرة العقل على الابداع وتقديم الاستجابات المناسبة للتحديات التي تفرضها البيئة الطبيعية أَو الاجتماعية على الإنسان من أَجل تيسير سبل حياته والارتفاع بها الى مستوى افضل (الملاح، ٢٠٢٠م، ص٣).

ويرى الملاح أيضًا أَنَّ الحضارة ظاهرة تاريخية واكبت حياة الأُمم والشعوب في نشأَتها وتطورها في قوتها وضعفها، لذا فقد عدَّ المؤرخون الحضارة تعبيرًا عن المنجزات المادية والمعنوية التي حققها شعب من الشعوب أَو أُمَّة من الأُمم عبر التاريخ. ومن هنا ارتبطت مكانة وعظمة الأُمم في التاريخ بعظمة المنجزات الحضارية التي حققتها (الملاح، ٢٠١٠م، ص٣).

أَمّا المفكر الأُستاذ عبد العزيز الدوري وبعد أَنْ بَيَّن دور الحضارة الإسلامية في قيادة العالم حقبة طويلة من الزمن ومواجهتها في قيمها للحضارة الغربية التي انتقد دعاتها وسمّاهم " دُعاة المركزية الغربية" و "دعاة الاغتراب المكاني"، فالأَولى تقول أَنَّ الحضارة الغربية ستسود العالم وستطمس الحضارات القديمة الراكدة وأَنَّ مصير العالم حضاريا هو التغريب إنْ عاجلًا أَو آجلًا، والثانية ترى أَنَّ النهضة مرهونة بتقليد ذلك الغرب والسير على خطاه (مهنا، ٢٠٠٨م، ص٦٠).

وقد دعا الدوري إلى تأكيد إعادة تقويم النظريات التاريخية ولاسيما تلك التي ترى أَنَّ الحاضر لا يتم فهمه إلّا من خلال دراسة التاريخ الغربي... ثم قال: "إنَّ التطورات المفصلية في العالم في منتصف القرن العشرين كشفت أَنَّ الحضارة الغربية ليست غاية التطور الحضاري وليست الوحيدة المؤثرة في العالم" (مهنا، ٢٠٠٨م، ص٦١).

لقد رفض الدوري وانتقد بشدة النظريات الغربية التي تفسر التاريخ بحسب هواها ورفض القول إنَّ الحضارة الغربية هي المثال الذي على الحضارات الأُخرى ولاسيما العربية الإسلامية أَنْ تحاكيه وتسير على خُطاه (مهنا، ٢٠٠٨م، ص٦١).

وانتقد الدوري أيضًا نظرية فوكوياما في "نهاية التاريخ" رافضًا فكرة النهاية وعدَّها معبرة عن تفسيرات غربية تهدف الى تذويب الثقافات في إِطار العولمة للوصول إلى ثقافة عالمية. (الدوري، ٢٠٠٥م، ص٩١).

وخلص الدوري الى نتيجة مفادها أَنَّ التاريخ الحضاري العربي لم يكتب بعد بطريقة منهجية علمية شاملة فلسفية حضارية بعد أَنْ عبثت فيه نظريات سياسية وعبث فيه المستشرقون بعد أَنْ نشروا كتاباتهم في وقت مبكر وجعلوها غالبة على الساحة الفكرية (مهنا، ٢٠٠٨م، ص٦٣).

ويقترب من هذه الرؤية الدكتور فيصل السامر محذِّرًا من تغوُّل الغرب في الشرق فيقول: "فمنذ القرن التاسع عشر والوطن العربي يحتك بالحضارة الغربية التي أَخذت تزحف علينا بآلاتها وعددها واسلحتها وافكارها ونظمها وفلسفتها زحفًا لا قبل لأَحد بعده". (السامر، ١٩٧٧م، ص٣).

أمّا بالنسبة للمفكرين الغربيين في نظرتهم للحضارة العالمية فقد تبايت وجهات نظرهم بين منصفٍ ومُجحِف! فيرى المفكر الألماني شبنجلر أَنَّ المدنيَّة الحالية التي شملت من سطح الأَرض أَكثره هي مرحلة من مراحل المدنية الغربية وهي المدنية الوحيدة القائمة في عصرنا الحاضر(السامر، ١٩٧٧م، ص٧). ومع هذا الطرح الذي يشي بأنَّ الغرب هو مركز لحضارات العالم ولكنه –أي شبنجلر– عاد وصاغ نظرية سقوط وازدهار الحضارات العالمية المحدودة العمر قياسًا لعمر التاريخ وجعل مصيرها الأُفول بما فيها الحضارة الغربية، مما دعا المجتمع الأَلماني أَو قادته، بتعبير أَصح قد نابذوه العداء بسبب تلك النظرة التشاؤمية المستقبلية في أَفكاره. والذي يطَّلع على كتابات شبنجلر يرى أَنَّ جلَّ أفكاره مستنبطة من فكر ابن خلدون في نظريته عن سقوط الحضارات ولاسيما تلك التي وضعها في كتابه "انحدار الغرب".

واذا ما عدنا الى دور العرب وإسهامهم في تقدم الحضارة العالمية بعد أَنْ استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان التي جاءت قبلها وامتزجوا بها ثم انطلقوا ينشرون حضارتهم في مشارق الأَرض ومغاربها، فسنجد حرصهم على تعزيز العلاقات الدولية ومدِّ جسور التبادل الثقافي والمعرفي في أَرجاء المعمورة لأَنَّ الاسلام اهتم كثيرا باحترام العهود والمواثيق والالتزام بها ووضع لذلك أُصولًا وقواعد (الحجي، ١٩٧٩م، ص١١).

ويؤكد هذا المعنى المفكر الفرنسي الفيلسوف غوستاف لوبون فيقول: " لم يلبث العرب بعد خروجهم من صحاري جزيرتهم أَنْ وجدوا اَنفسهم أَمام ما بهرهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية وإنْ أَدركوا تفوقها الثقافي كما أَدركوا تفوقها الحربي فيما مضى فجدُّوا من فورهم ليكونوا على مستواها" (لوبون، ٢٠١٩م، ص١٥).

ثم يعود ويمتدح إسهام الأُمَّة العربية في ذلك فيقول: "حقًا إنَّ العرب اَخذوا ينظِّمون شؤونهم بعد انتهاء دور الفتوح، فحوَّلوا جهودهم الى ميدان الحضارة وأَبدعوا حضارة أَينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة .. وأَنهم أَثبتوا منذ ساعة اتصالهم بالعالم الخارجي أَنهم من ذوي العقول الناضجة المستعدة للتمدُّن والتمدين" (لوبون، ٢٠١٩م، ص١٦).

ودعا لوبون أَصحاب العقول النَيِّرة من الغربيين وغيرهم أَنْ يتأَمَّلوا أَصل الحضارة الإسلامية فيقول: " لا ترى في التاريخ أُمَّة ذات أَثر بارز كالعرب، فجميع الأُمم التي اتصل العرب بهم اعتنقت حضارتهم ولو حينًا من الزمن، ولما غاب العرب عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم كالترك والمغول تقاليدهم وبدوا للعالم ناشرين لنفوذهم" (لوبون، ٢٠١٩م، ص٢٠).

ويتساءل لوبون بعد أَنْ أَثبت فضل العرب على أُوربا وتمدينهم لها ويقول: "لماذا ينكر علماء الوقت الحاضر تأثير العرب؟ ثم يُجيب بنفسه عن ذلك فيقول: "إنَّ استقلالنا الفكري لم يكن بالحقيقة، في غير الظواهر، وإننا لسنا من أَحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد. فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كوَّنتها الدراسات الخاصة والبيئة الخُلقية والثقافية والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأَجداد وكانت خلاصة لماضٍ طويل" (لوبون، ٢٠١٩م، ص٢٢).

وعلى الرغم من أنَّ العالم الآن يعيش حقبة العولمة ومحاولة اختزال الحضارة الإسلامية والتقليل من شأنها وجعلها تدور في فلكه بعدّها حضارة غربية مادية تعبد آلات التصنيع والتكنولوجيا وتنبذ الروح وارتقائها لتعيش في وئام وسلام مع بني البشر جميعًا، إلّا أنَّ الحضارة الاسلامية ماضية في التفاعل مع الحداثة بما يتفق مع ثوابتها غير القابلة للتمييع والتبديل بعدّها المشروع الحضاري الإسلامي ليس مشروعا مُغلقًا ومُقفلًا لا يقبل التعايش والتنوع، بل هو مشروع يؤمن بالتفاعل والانفتاح على الآخر(محفوظ، ٢٠٠٠م، ص٨٢) وذلك لما في هذا المشروع –الحضاري الإسلامي– من مشتركات كثيرة جدًّا تجمعها مع حضارات العالم أَجمع وأولها هي "الإنسانية". وهذا الذي استنبطه المفكر الأُستاذ قسطنطين زريق عندما قال: "... وارتباط الإنسانية بالتاريخية ليس هو من حيث الأَصل والكيان فحسب، بل من حيث التفاعل والتأثير المتبادل أَيضًا، فكلَّما ارتفع الإنسان من مراتب الإنسانية، ارتقت نظرته التاريخية وغزر فعله التاريخي، وكذلك كلَّما كان وعيه للماضي أَصفى ومجابهته له أَصدق وأَعمق اغتنى كيانه الإنساني وغدا أَقدر على الإنتاج والابداع" (زريق، ١٩٦٣م، ص٢٢).

ولذلك لم تحاول الحضارة الإسلامية في فترة نموها وانتشارها أَنْ تلغي الثقافات المحلية الموجودة في دار الإسلام وإنَّما سعت إلى التعايش معها من خلال احترامها لمبدأ الوحدة والتنوّع في الحضارة، فهي في الوقت الذي حافظت فيه على هويتها العامة –العربية والاسلامية– سمحت لأَتباع الثقافات الأُخرى بممارسة تقاليدهم والعيش وفق قيمهم الدينية والحضارية القديمة بشرط عدم تصادمها مع قيم الإسلام الحضارية العامَّة (كرونباوم، ٢٠١٦م، ص٢٩٣).

المبحث الثاني

منهج ورؤية مصطفى جواد للحضارة الإسلامية

نظر العلّامة مصطفى جواد الى الحضارة الإسلامية نظرة إنسان واعٍ مثقَّفٍ تربوي أَراد أَنْ يزرع قيم حبّ الوطن والاعتزاز بتراثه وتأريخه ولغته، وذلك من خلال عمله في ميادين كثيرة ولاسيما الميدان التاريخي والخططي الذي امتهنه وتخصَّص به شطرًا طويلًا من حياته وخرج بحصيلة وافرة من النتاج الفكري والعلمي في ذلك.

والمتتبع لتراث مصطفى جواد يرى مدى اهتمامه بالشواخص الآثارية المعمارية الباقية من الدول الاسلامية التي حكمت العراق، بدءًا من الدولة العباسية في عهد قوتها ثم انحدارها بسبب حروب المغول والاليخانيين وغيرهم وصولًا الى العثمانيين ثم البريطانيين حتى قيام الدولة العراقية سنة ١٩٢٠م. وخلال تلك الحقبة الطويلة استعرض جواد في مؤلفاته وأَبحاثه أهم وأبرز مقوّمات الحضارة الإسلامية العمرانية في بغداد وغيرها من مدن العراق.

كان العنصر الأَول من مقوّمات الحضارة عند مصطفى جواد هو التاريخ، والتاريخ هو الحضارة في أَحد معانيه، إذن فإنَّ مصطلح التاريخ والحضارة مترادفان يحملان معنى واحدا، فالتاريخ يحمل قصَّة الإنسان في الكون ورحلته عبر الزمن وهي رحلة ما تزال مستمرة. ويؤيد هذا الكلام المؤرخ حسين مؤنس عندما قال: "تجد الفكرة الحضارية سابقة على الحركة التاريخية، والحركة التاريخية مؤدِّية إلى المزيد من النشاط الحضاري، أَي إنَّ التاريخ والحضارة يسيران جنبًا إلى جنب، فلا فاصل في الحقيقة بين التاريخ والحضارة (مؤنس، ١٩٧٨م، ص٦٢).

اتَّبع الدكتور مصطفى جواد في بحوثه منهجًا تاريخيًا علميًا دقيقًا يعتمد الشروط الصحيحة في الكتابة التاريخية. ومن هنا فإنَّ البحث في دقائق علم التاريخ عنده محكوم بضوابط دقيقة يجب البحث عنها والالتزام بها. فنراه يعتمد التحليل والنقد القائم على أُسس علمية منهجية عند بحثه في الوقائع التاريخية تمكنه من الوصول الى حقائق تاريخية يستعين بها في إعادة المعرفة التاريخية. ولذلك فهو يرى

أَنَّ على الباحث أَنْ لا يتقيَّد مُسبقا عند البحث برأي أَو يُسلِّم باستنتاج، وأَنْ يكون مُتجرّدًا من كلِّ هوىً أَو ميل، حياديًّا في تفكيره التاريخي وأَنْ يسمو فوق الأَهواء (بهاء الدين، ١٩٧٧م، ص١٠٠).

كما عدّ الشك المنهجي في كلِّ رواية أَو خبر يجب أَنْ يكون منهجًا عامًا عند الباحث في الحضارة والتاريخ، وهو مرحلة ضرورية وأَساسية في البحث حتى قيل: "إِنَّ شك المؤرخ رائد حكمته، والأَصل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة" (الغزالي، د ت، ص٥١).

وهذا المنهج قد اعتمده علماؤنا الأَوائل كالإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) إذ يقول: "فقلت في نفسي أَولا أَنَّ مطلوب العلم بحقائق الأُمور، فلا بدَّ من طلب حقيقة العلم ماهي؟ فظهر لي اَنَّ العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يُفارقه إِمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأَمان من الخطأ ينبغي أَنْ يكون مقارنًا لليقين" (الغزالي، د ت، ص١١١).

لذلك كان مصطفى جواد لا يقرأ النص كحقيقة مُسلَّم بها؛ بل حاكَمَ النصوص التي كان يقرؤها على العقل أَولا، فما وافق العقل اَثبته وما يبعث على الشكِّ طرحه ولفظه. ولم يبنِ شكَّه على وهم أو فراغ بل بناه على حجج وقرائن أَثبتت الأَيام صدقها ورسوخها وصحَّة شكِّه بكثرة تعقّبه ودقَّة أَدلَّته وحُسن رأيه وصوابه. وما تحقيقاته لكثير من النصوص التاريخية وتعقيباته وتصحيح نسبة بعض كتب التراث، أَو الاهتداء الى تحقيق مؤلفيها الحقيقيين، أَو الاستدراك على بعض الكُتّاب مما وقعوا في الغلط والأَوهام إلّا خير شاهد على صحَّة منهج البحث التاريخي الذي اختطه مصطفى جواد ومهر به في سيرته العلمية.

لقد حرص جواد على انقاذ تراث البلد من الدمار والضياع بسبب التجاوز عليه من الكثير بسبب الإهمال وعدم الصيانة مما حدا بالناس الى عدم الاكتراث به، كمثل بعض خانات بغداد أو المدن الأُخرى التي تُركت وأَصبحت مأوى للحيوانات أو مخازن لأَصحاب المهن والتجار. وفضلًا عن ذلك فهو يشحذ الهمم وينبّه الناس والمثقفين منهم على وجه الخصوص أَنَّ هذا التاريخ والتراث الذي بين أيديكم لا يتوفر لباقي الأمم، فيجب أن تعتزوا وتتمسّكوا به، لأَنَّ قيمة ورفعة بلدكم في المحافظة عليه (جواد، ٢٠٢٣م، ٧٢).

لذا فهو يخاطب الجمهور العراقي في استثمار الكم الهائل من المباني القديمة والآثار المتبقية حتى تأخذ بغداد مكانتها الريادية بين المدن الإسلامية التي كتب عنها البلدانيون والخططيون والرحالة فنراه يقول: ".. وإنه لمن الواجب علينا أن نعلم تأريخنا بتحصيل وتفصيل وتدقيق نظر وتعليل، ونُطيل الوقوف على أطلال المجد وآثار الأَنَفَة والإباء... فلكلّ أمة أضاعت مجدها وفقدت عزّها مَعايب ومَثالب ومَزالق وهفوات لا تستطيع أن تستعيد مجدها وعزّها إلاّ بمعرفة العيوب واجتنابها" (جواد، ٢٠٢٣م، ص٧٢).

ولعل أَول خطوة في أُصول منهجه الخططي هو زيارة الموقع الاَثري الذي يروم البحث فيه، فالبنايات والصروح شواهد تاريخية تقوم معها حُجَّة الخططي. وبتعبير آخر عبَّر عنه غوستاف لوبون بقوله: " المباني من حيث بعض الحضارات هي المصدر الوحيد الذي يُصحَّح به الماضي" (لوبون، ٢٠٢١م، ٨٢).

وقد تتكرر الزيارة مرات عدَّة لتحصل له قناعة وليتثبَّت من الأثر التاريخي من نواحي عدَّة، كما حصل معه في زيارته خان الأُورتمة لأَكثر من خمسين مرة إذ قال: " فلخدمة التأريخ النزيه قصدنا إلى باب ذلك الخان أكثر من خمسين قصدة وتحمّلنا وَصَبَ الوقوف والنظر الحديد بين مُشاةٍ ساخرة ونظّارةٍ حاقرة وعابري سبيل غير ملتفتين". وكذلك زيارته لقنطرة حربى على نهر دجيل شمالي بغداد (جواد، ٢٠٢٣م، ص٥٥). وتاريخه حافل بزيارة المواقع الأثرية التاريخية في كل أرجاء العراق.

ومن أصول منهجه في الخطط أيضًا أنه لا يقتصر على دراسة أي أثر بمعزل عن التغييرات التي طرأت على المكان الأثري أو التاريخي المثبت عنده بالمصادر أو الخرائط التي رسمها بعض المستشرقين لمدينة بغداد القديمة مثلا، ويضع ما طرأ عليها من نوائب الدهر الطبيعية كعامل يساهم في عدم الحصول على نتائج صحيحة لأن الموقع أو المدينة تغيّرت معالمها واندرس بعضها، فلم يبق له أثر ولا مكان يُعرف، وقد كشف عن سبب ذلك فقال عن خطط بغداد قديمًا وحديثًا: " قلّما وجدت مدينة إسلامية عربية غير دارسة قد تغيّرت مواضعها وتبدّلت أسماؤها مثل بغداد مدينة السلام.." (جواد، ٢٠١١م، ص٢٤٠).

ومن هنا فقد كان منهجه في التحقُّق من كل أثر تأريخي يقف عليه صارمًا ودقيقًا، فنراه لا يؤكد ولا يجزم بأي نتيجة قطعية لأي أثر حتى يعثر على ما يؤيد ذلك من قرائن علمية وعملية تتطابق مع ما ورد في المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات. لذلك نراه صريحًا لا يتردد عندما يُشكِل عليه المكان ويضيع أثره أَنْ يبيّن للجمهور والباحثين عن صعوبة واستحالة تعيينه قائلًا: "وكانت محلة باب الشعير فوق محلة الجعيفر، إلّا أننا لم نستطع تعيين موضعها بالضبط، وكيف يمكننا تعيين ما لا أثر له ولا حدود تحدّه" (جواد، ٢٠٢٣م، ص٦٣).

وبناءً على ذلك فهو ينتقد كل مَن يعمل بهذا الفن من غير علم ولا دراية على الرغم من أنه يسمّيهم علماء ولكنهم لم يُحسنوا التعامل مع التراث الخططي والعمراني كما يجب، ومنهم المستشرق ريجارد كوك الذي انتقده مرارًا لهفواته الكثيرة، ومنها: أنه جعل محلة دار الروم المسيحية في المخرم ببغداد مع بُعد المسافة بينهما، وكذلك جَعْلِهِ بِيَعْ ومحلات المسيحيين متناثرة على جانبي نهر دجلة. فقال جواد: " هذا قول مَنْ لا عِلم له بخطط بغداد ولا بتأريخها الاجتماعي فمن عادة ذوي الأقليات في الدول القديمة أن يجتمعوا في محلة ولا ينتشروا إلى حد التناثر" (جواد، ٢٠٢٢م، ص١٨).

وانتقده أيضًا بعد أن جعل سور بغداد الجديد جنوب رأس الجسر على دجلة فقال: "فبحث جسور بغداد طويل وشائك لا يستطيع الكلام فيه المؤلف ولا أمثاله ممن لم يختصّوا بدراسة خطط بغداد..".

ثم نراه يقسو ويتحامل على فئة أخرى ويصفهم بأبشع الأوصاف لتخبطهم وعبثهم في تراث الأمة فيقول: (ولم تخرج أقوال جماعة من العلماء في محاولة تعيينها عن الأوهام والظنون والسماع ممن لا يصح الوثوق بقوله في علم الخطط ولا سيما خطط بغداد فإنها – أعني بغداد – قد تغيرت كثيرًا وتنقّلت وتحوّلت، وكثر الذين يتكلمون في خططها عن غير علم، ومن الناس من يُصدّق كلّ ناعق فيها، فلذلك كثرت الأقوال الكاذبة في خطط بغداد ولم يبق اعتماد على غير مَنْ يؤيد قوله بالدليل والأخبار أو بالفن والآثار) (جواد، ٢٠٢٢م، ١١٩).

واستمر جواد بانتقاد هؤلاء ووصفهم في كتابه "دليل خارطة بغداد" بأنهم مُدلّسون أوقعوا الناس بالخطأ المتعمّد لجهالتهم، وأنهم حشروا أنوفهم فيما ليس لهم به علم ولا دراية بعلم الخطط والعلوم المساعدة له التي توصل الباحث والآثاري للموقع الصحيح فقال: (وبسبب تحوّل عمران بغداد من الشمال إلى الجنوب وانتقال الخلافة العباسية من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي فإنَّ عُسر البحث في خططها التوى على كثير ممن زاولوه بغير دراسة علمية منظّمة وعالجوه بغير إحاطة بأطوار التغيّر والتحوّل وكثُر التخليط والتخبيط وراج التدليس أحيانًا ممن يريدون أن يدسّوا أنوفهم في كلّ شيء.. من غير خشية ولا تورّع ولا تحرّج) (جواد، ٢٠١١م، ص٢٤٠).

التوصيات

١–أن تعاد طباعة مؤلفات العلامة الدكتور مصطفى جواد لما تشكل من اهمية للباحثين والدرسين في علم الخطط.

٢–أن يقام مؤتمر دولي لكبار الخططيين والمؤرخين لدراسة كيفية الحفاظ على ما تبقى من تراثنا الشاخص.

٣–أن تخصص جائزة سنوية باسم مصطفى جواد للإبداع في التراث الخططي.

Sources and References

First: Sources

- Ibn Khaldun, Abdul Rahman Ibn Muhammad (D. 808 AH/1405 CE)
    1. *Al-Ibar wa Diwan al-Mubtada' wa al-Khabar*, edited by Khalil Shahada, 2nd ed., Dar al-Fikr, Beirut, no date.
    2. *Muqaddimah*, 1st ed., Dar Yarab, Damascus, 2004 CE.
- Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad Ibn Muhammad (D. 505 AH/1111 CE)
    1. *Al-Munqidh min Al-Dalal*, 1st ed., Dar al-Kutub al-Hadithah, Cairo no date.

Second: References

- Al-Bakka, Muhammad Ibn Abdul-Muttalib
    1. *Mustafa Jawad: His Life and Scholarly Standing*, 1st ed., Dar al-Shu'un al-Thaqafiyah al-'Ammah, Baghdad, 1989 CE.
- Baha' al-Din, Wahid Al-Din

2. *Mustafa Jawad: Philosopher of the Arabic Language and Baghdad's Architect*, 1st ed., al-Ahliyyah Library, Baghdad, 1977 CE.

- Al-Jabri, Muhammad Abid

3. *Al-'Asabiyah wa al-Dawlah*, 6th ed., Center for Arab Unity Studies, Beirut, 1994 CE.

- Jawad, Mustafa

4. *Linguistic Studies in Iraq*, 1st ed., Committee of Arabic Statement Press, Cairo, 1955 CE.
5. *Islamic Arts*, edited by Hussein Muhammad Ajeel, Dar al-Shu'un al-Thaqafiyah, Baghdad, 2021 CE.

6. *Before the Abbasid Renaissance*, edited by Muhammad Karim al-Jumayli, 1st ed., Dar al-Mu'taz, Jordan, 2023 CE.

- Al-Hajji, Abdul Rahman

7. *Aspects of Islamic Civilization*, Al-Sahwah Library, Beirut, 1979 CE.

- Al-Samar, Faisal

8. *The Arabs and European Civilization*, Dar al-Hurriyah for Printing, Baghdad, 1977 CE.

- Rustum, Asad

9. *The Terminology of History*, 2nd ed., Al-Asriyah Library, Sidon, Lebanon, no date.

- Zuraik, Constantine

10. *Us and History*, 2nd ed., Dar al-'Ilm li'l-Malayin, Beirut, 1963 CE.

- Saliba, Jamil

11. *Philosophical Dictionary*, Dar al-Kitab al-Lubnani, Beirut, 1982 CE.

- Al-Kuray, Ibrahim Salman & Abdul Tawab Sharaf al-Din

12. *The Reference in Arab Islamic Civilization*, 2nd ed., Dar al-Salsalah Publications, Kuwait, 1987 CE.

- Le Bon, Gustave

13. *The Civilization of the Arabs*, translated by Adel Zayter, Dar al-Adab al-'Arabi, Cairo, 2019 CE.

14. *Philosophy of History*, Dar Askraib for Publishing and Distribution, Cairo, 1921 CE.

- Mahfouz, Muhammad

15. *Islam, the West, and the Dialogue of the Future*, 2nd ed., Arab Cultural Center, Beirut, 2000 CE.

- Al-Mallah, Hashim

17. *Islamic Civilization and the Horizons of the Future*, 1st ed., Dar al-Kutub al-'Ilmiyah, Beirut, 2010 CE.

- Mones, Hussein

18. *Civilization: A Study in Its Origins, Factors of Emergence, and Decline*, National Council for Culture and Arts, Kuwait, 1978 CE.

- Mahna, Inas Sabah

19. *The Logic of Civilization in the Thought of Abdul Aziz al-Duri*, 1st ed., Center for Arab Unity Studies, Beirut, 2008 CE.

Third: Journals

1. *The Means of Advancing the Arabic Language*, Al-Usat Magazine, Volume 8, Baghdad, 1960 CE.
2. *Mustafa Jawad and the Philosophy of Doubt in His Research*, Al-Khizanah Magazine, Issue 7, 2020 CE.
3. *World of Thought Magazine*, Issue 3, Kuwait, 2016 CE.